قبل اليوم المشهود

للدكتور زكي مبارك

قضى آدم في سخبة حوّاء ساعات وهو ينتظر اليوم المشهود في ساحة العدل ، وهي ساعات كانت أطول من الدهر وأثقل من الجبال

وزاد في كروب تلك الساعات أن آدم لم يكن في حقيقته إلا خِلقة فطرية يُعوزها الصقل والتهذيب ، فكان يبدئ ويعيد في حكاية شجرة التين ، بعبارات مخجّلة بمنجهية الملامة وقظاظة التريث ؛ وكانت حوّاء تصبر على أذاه في حين ، وتثور في أحايين ، وكذلك كانت تلك الساعات أعنف وأفظع من الحساب المرتقب في ساحة العدل

— آدم ، هل وصلت إليك الأنباء الأخيرة ؟

— أيّ أنباء ؟

— لقد اختصم الأسود والقرود

— ثم ؟

— ثم اختصم الملائكة المقرّبون

— وفيم يختصم أولئك وهؤلاء ؟

— في أمرنا بعد العصيان

— وما قيمة ذلك ؟

— لقد فهمت مما سمعت أن الرأي العام يعطف على قضيتنا كل العطف

— الرأي العام كله ؟ كل سكان الجنة ينظرون إلى قضيتنا برفق ؟

— ليسوا جميعاً سواء ، وإنما عطف علينا الأكابر من أولئك السكان

— والأصاغر ؟

— هم دائماً أصاغر ، ولا قيمة لضجيجهم الصخّاب

— ليس في هذا ما يزيل مخاوف ، يا حواء ، فما خشيت يوماً أن يصيبني أذًى من أكابر الخلائق ، ولا جاز في وهمي أن تَصدُر كلمة الإفك عن مخلوق جمّله الله بالقوة أو بالعقل ، وإنما الخوف كل الخوف من الأصاغر ، فهم الذين يذيعون الصحيح والعليل من أخبار السوء ، وهم الذين يطمسون محاسن الأكابر بالإفك والإرجاف ، ليقال إن الوجود ليس فيه فاضل ومفضول

— لا عليك من هؤلاء ، فلن يسمع أحدٌ ما يأفكون ... وهل ضعُفت العقول حتى تُسيغ أقاويل المرجفين ؟

— لو كانت العقول تَنقُد كل ما تسمع ، وفي كل وقت ، لرجوتُ أن تسقط أراجيف الكاذبين ، ولكن العقول لا تَنقُد كل ما تسمع ، ولا تنصب ميزاناً لكل ما يقال ، وسترين يا حواء أن أصحاب العقول أقلية ضئيلة ، وهم مع ذلك لا يشغلون أنفسهم بإنصاف المظلومين ، وليس فيهم من يترك أعماله ليرفع الشبهات المفتريات من طريق المروَّعين بالبهتان

— ألم تسمع أن الأسود غضبت من تطاول القرود ؟

— سمعتُ ، ولكني أعتقد أنها غضبة وقتية ، فستجدّ للأسود شواغل تصرفهم عن تأديب أولئك الأنذال

— وقد غضبت البلابل أيضاً

— أعرف ذلك ، فقد سمعتها تقول إن آدم هو المخلوق الوحيد الذي يطرب لصوتها الرخيم ، وأنه إن خرج من الجنة فلن تهشّ للتغريد ... ولكن من يضمن أن يدوم هذا العطف ؟ نحن شجّعنا البلابل والعنادل على الغناء ، وأقمنا لهم دولة ، ونبّهنا الخلائق إلى ما يملكون من جواهر السجع والرنين . فهل يذكرون هذا الفضل بعد أن نخرج من الفردوس ؟ أنا أخشى أن تصفق لهم الضفادع فيرون النقيق من سور الثناء !

— هل بلغك ما قالت الببغاوات ؟

— نعم سمعت أنها قالت «إن مخارج الحروف عند آدم سهلة لينة ، وأنها تحاكيه في النطق بلا عناء ، فهو بذلك أجمل مخلوق» وأنا من هذا أخاف يا حواء

— وكيف ؟

— ستستطيع الببغاوات أن تزعم أنها خلائف

— خلائفُ مَنْ ؟

— خلائف الحيوان الناطق

— خلائف آدم ؟

— إي ، إي ، أليست تنطق كما ينطق ؟

— ولكنها لا تفقه شيئاً مما تنطق ؟

— من حق الببغاوات أن تدّعي لأنفسها ما تشاء ، حين يغيب أهل العقل والبيان

— ولكن أهل الجنة سيذكرون دائماً أنك وحدك الشاعر والخطيب

— أهل الجنة لن يذكروا شيئاً ، وسوف تعلمين

— خيلتني ، خيلتني !

— إن كنتِ في حاجة إلى تزيد من الخيال ، أيتها المخبولة الحسناء . . . إسمعي

— إنك تُرعبني حين تقول اسمعي

— إسمعي يا حواء ، ثم اسمعي ، المجد يحتاج إلى حراسة ، والأصدقاء يحتاجون إلى حراسة ، وقد تكون رعاية الغنم أسهل من رعاية الأصدقاء ، ولن يحفظ عهدنا أحدٌ حين نغيب

— ولا الظبي الذي ربيناه منذ أسابيع ؟

— سيجد ذئباً يرعاه ، وسيأنس بالأنياب الحداد ، أضعافَ ما أنِس بالأنامل اللطاف

— هي أناملي ، لا أناملُك

— حتى في أوقات الكرب الماحق لا تنسى المرأة أنها مخلوق لطيف !

— ترتاب في جمالي ؟

— أستغفر الله !

— ولا تستغفر الحب ؟

— وأستغفر الحب وأتوب إليه !

— صِدق ، صِدق ؟

— وهل كذبتُ عليك يوماً يا حواء ؟

— أنا إذاً جميلة وأنت تحبني ؟

— ما أحببتُك يوماً ، ولا رأيتك جديرة بالحب ، لأن عقلك أصغر من عقلي ، والحب تفاهم بين عقلين ، قبل أن يكون تلامساً بين جسمين ، ولكن صوتاً يزعجني يا حواء

— وما ذلك الصوت المزعج ؟

— هو الصوت الذي يصرخ بأن لا بد لآدم من حواء

— تقول هذا وأنت الذي يُشغل عني بما في الفردوس من شجر ونبات وطير وحيوان ؟

— أنا شُغِلتُ عنك بتلك الخلائق ؟ هيهات ثم هيهات ! كنت أتأمل الأشجار لأعانق الغصن الذي يشبه قدك النشوان ، وكنت أداعب الأزهار لأرى فيها شمائل من خدك الوهاج ، وكنت ألاعب الأطيار لأسمع سجعاً يذكّر بصوتك المقتول ، وكنت أتغنى فصائل الحيوان لأعرف أن لك صوراً في عيون الجآذر وأجياد الظباء . حبك يا حواء أذواني وأضناني وأبلاني ، وستسمعين من أخباري ما تكرهين

— عَدَتْك العوادي ، أيها الفارس الجميل !

— سأصبح فارساً بلا فَرَس

— أنت ؟

— نعم ، أنا ، فقد حدثني أحد الملائكة أن الله لا يقيم وزناً لهفوات النساء ، فإن القضاء الذي سيقام في ساحة العدل سيجعلني المدين

— وحدك ؟

— وحدي !

— وإذن ؟

— وإذن أهبط الأرض وتَبْقَيْنَ في الفردوس

— مع من ؟

— مع جميع هذه الخلائق من شجر ونبات وطير وحيوان ومع نهر الكوثر ، ومع الملائكة المقرَّبين

— أهذه خلائق ؟

— بالتأكيد ، وفيها الكفاية لمن يحتاج إلى أنيس

— وأصير كالدَّجاجة الحائرة عند غياب الديك ؟

— كيف تحارين وأنت بين المهتدين ؟

— هداية حواء في غيبة آدم هي أقبح صورة من صور الضلال

— سيقضي الله في أمرنا بما يشاء

— الله سيقضي بأن تعيش المرأة بلا رجل ؟

— سيقضي الله بالعدل ، فالرجل أذنب والمرأة لم تذنب ، والعقاب لا يحق على غير المذنبين

— تخرج من الجنة وأبقى وحدي بحجة أنك المذنب ؟

— بالطبع !

— وهذا عدل ؟

— هذا هو العدل .

— والله يريد ذلك ؟

— يقال !

— آدم ، سترى أنني أشجع منك ، وأوفى منك !

— من السهل أن تكوني أشجع مني ، ولكن من الصعب أن تكوني أوفى مني

— المرأة لا تعتصم بالدلال إلا في أوقات الصفاء ، وهي عند الخطر فداء الرجل من جميع الأسواء . ألم تسمع حديث الصائد ؟

— وما حديث الصائد ؟

— إذا ساور الصائد أسداً ولَبُؤَة ، كان عليه أن يقتل اللبؤة قبل أن يقتل الأسد

— ولماذا ؟

— لأن الأسد ينسحب بعد انصراع اللبؤة ، أما اللبؤة فتقاتل بعد انصراع الأسد إلى أن تموت

— وأنا سأجادل الله يا آدم

— وتجادلينه يا حواء ؟

— أنا أفصح من جميع المحامين ، والمرأة تحارب بالدمع حين تعجز عن المحاربة باللسان

— ولكن الله أكبر من أن ينخدع بدمع المرأة ولسانها

— أنا أعرف الله أكثر مما تعرف

— كل شيء جائز إلا أن تصل المرأة إلى معرفة الله على الوجه الحق

— أنت لا تعرف خطر المرأة حين تصرخ وتولول

— أو يزعج الله عزّ شأنه بالولولة والصراخ ؟

— سترى كيف أصنع ، سترى ، سترى ، سأقيم مناحة في ساحة العدل ، وسيبكي معي جميع الإناث من الطير والحيوان

— والنتيجة ؟

— النتيجة معروفة منذ هذا الوقت ، فسيصفح الله عنك ، ليريح أهل الجنة من الولولة والصراخ

— ويقول التاريخ إن آدم نجا من العقاب لأن امرأته بكت في ساحة العدل ؟

— ما قيمة التاريخ ، وهو لفظٌ بلا مدلول ، ولا يعتزُّ به غير الضعفاء ؟

— وتقولين كلما اختصمنا إنك سبب نجاتي !

— هل يؤذيك أن تعترف بفضلي عليك ؟

— تمنّين عليّ قبل أن يقع الفضل المزعوم ؟ أنت السبب فيما أعاني من البلاء ومع هذا تطالبين بالثمن لدفع نكبةٍ جناها عقلُك المنخوب !

— أنا أعقل منك !

— لأنك أغريتني بالأكل من شجرة التين ؟

— وهل في الجنة شيء اسمه شجرة التين ؟

— تكذّبين الواقع الملموس ؟

— واقع ملموس ؟ ما هذا الكلام الأجوف ؟

— شجرة التين ، يا حواء ، شجرة التين

— قلت لك إن الجنة ليس فيها شيء بهذا الإسم الغريب

— ولم تقع في العصيان ؟

— أي عصيان ؟

— العصيان الذي أوجب أن نفتضح ، يا حواء

— وكيف افتضحنا ، يا آدم ؟

— بظهور السوأتين

— الطير والحيوان لا تعرف ستر السوأتين ، فأرح نفسك من هذا العناء

— أترين أن أواجه الله بهذا القول ؟

— واجِهِ اللهَ بما تشاء ، ولا تخف من غضبه عليك !

— وكيف ؟

— لأنه لن يصنع بك أشد مما صنع

— ماذا ؟ ماذا ؟

— لقد خلق لك ضميراً ، ثم خلق لك ضميراً ، لتقضي حياتك في عذاب !

— وإذن ؟

— وإذن تكفر بالله وتثور عليه

— لأصير ...

— لتصير حيواناً سعيداً كسائر أصناف الحيوان

— الفضيحة الأبدية ، ولا هذا المصير ، يا حواء

— ماذا تريد بنفسك يا آدم ؟

— أريد أن أكون أول مسئول أمام الله في هذا الوجود

— وما غنيمتُك من هذه المسئولية ؟

— هي أن أتشرف بالثواب والعقاب

— الله قد يعاقب ولا يُثيب

— يهمني أن أعاقَب ولا يهمني أن أثاب

— لأنك ...

— لأني رجل ، وسعادةُ الرجولة في احتمال التبعات

— وبهذه العقيدة ستلقَى الله في ساحة العدل ؟

— نعم ، نعم

— وإذن يكون من حق أن أقول إني في صحبة رجل هو أشجع الرجال وأشرف الرجال !

(الحديث أفانين)

زكي مبارك